



تقديم كتاب :

"روضة الأفنان في وفيات الأعيان "

لمحمد بن أحمد الإكراري

تحقيق حمدي أنوش(1)



تتابعت الرزايا، وشاءت الأقدار أن يلتحق المحقق الجهبذ "حمـــدي أنـــوش" بالأعيان الذين أتاهم هادم اللذات، فلا راد لقضاء الله. فرحـــم الله مؤلـــف "روضـــة الأفنان" الإكَراري، ومحققها أنوش، وأسكنهما فسيح جنانه.

لا خوف عليهما، إذ تركا وخلفا "صدقة جارية" نفعها عميـــم ســـرمدي، لا ينقطع بإذن الله. فالكتاب بمثابة جعفر متدفق، ماؤه زلال، ارتـــوت وترتـــوي منـــه أجيال بعد أجيال، جعفر وضع أسسه ورص بنيانه المؤلف، ومد المحقـــق جداولـــه وأحياه من جديد، فازداد وميضه إشعاعا، وعمت فائدته، كأنه نشط من عقال.

ويبدو أن فك أسر الكتاب استغرق نصف قرن ونيف، إذ مر عـــبر ثـــلاث مراحل، واكبت بطء تبدل الذهنيات والعقليات، وتعقد مساطر الطباعة بالمغرب:

أ ــ ففي الـــمرحلة الأولى استفاد من متـــنه المؤرخ "محمد المختار السوسي" وأفاد بعد أن ظـــل مخطوطا فـــي يـــد القلة، غير أن الكتاب حكم عليـــه أن لا يصـــرح بكل ما لديه.

ب ــ في المرحلة الثانية حققه أنوش ورقنه في إطار دبلوم الدراسات العليا بالرباط

• أستاذ باحث بكلية الآداب - أكادير.

تحت إشراف الأستاذ الجليل "أحمد التوفيق"، لكن العمل بقي حبيس خزانة كلتي الرباط وأكادير، وبيد مجموعة من الأساتيذ والباحثين.

ت ـ في المرحلة الثالثة حظي بالنشر تحت إشراف لجينة بكلية الآداب، جامعة ابن زهر، قادها السيد القيدوم حسن بن حليمة، ووضع الأستاذ أحمد التوفيق تقديما مفيدا ومعبرا في حق المؤلف والمحقق. وكان المرحوم حمدي أنوش قد أعد النص وباشر عملية الطبع قبل وفاته.

فإلى كل هؤلاء يرجع الفضل في ذيوع صيت "الروضة"، وتداولها أكثر من ذي قبل بين القراء. فلله درهم والله لا يضيع الأجر.

كثيرة هي مزايا الكتاب، فقراءته ممتعة، ونوعه نادر، ومظانه متعددة الأبعاد. ولو استعملت حقول معرفية مختلفة في تحليله لكان أفضل(2). لذا ففي هذه العجالة سنكتفي بإعطاء لمحة ولوحة عن المتن، وما أثاره من قضايا وإشكالات وردود ، ثم خطوات التحقيق المتبعة: فوائدها ومقاصدها. إن اللافت للانتباه، هو التكامل الحاصل بين المؤلف والمحقق. فالأول صنو الثاني، وإن اختلفا في التكوين إذ الإكَراري – رحمه الله – تكوينه تقليدي أصيل بتزنيت ومضاربها، وأهم شيوخه الأدوزيون، طريقته الناصرية ومارس خطط : الإمامة والتدريس والإفتاء والقضاء فشوهد له بسعة مداركه ومشاركاته أدبا وفقها وتصوفا وتوقيتا.

أما أنوش – رحمه الله – فتكوينه يكاد يكون عصريا، تخرج على يد أساتيذ لا يشق لهم غبار أمثال : عياش وحجي وزنيبر والعروي والتوفيق وآخرون. وامتهن التدريس الثانوي والجامعي، وشارك وساير وتفاعل مع تقلبات المجتمع المدني.

ويمكن القول، إنه بتمكنه من سبر أغوار متن "الروضة" استحق أن يضاف إلى لائحة شيوخه : الإكَراري، الذي كان في أمس الحاجة إلى المحقق ليتأقلم كتاب "الروضة" مع روح العصر، دون أن يبتعد الفرع عن أصله.

فالاثنان معا أبدعا وتركا بصماتهما في العمل المنجز، بل وشماه بجزء غير يسير من شخصيتهما، فالمتن صورة عن فقيه سوسي تفاعل وانفعل مع ويلات تقلبات الأحوال، بينما تحقيق المتن صورة عن باحث شديد القرب من المؤلف والمؤلف ، رغم ما يفرضه :منهج التحقيق" من صرامة وحياد.

اتسم موضوع الكتاب بالتعدد، عصبه تراجم الأعيان والعرفاء والعلماء والصلحاء بسوس، بلغ مجموعها أزيد من مائتي ترجمة، استهلت بمقدمة حول تاريخ تالعينت ومآثر قائدها، وعلاقاتها مع المحيط، وتفاعل السوسيين مع بعض الأحداث الوطنية. ولم يحل هذا الترتيب من السقوط في استطرادات تحمل شواهد ثقافية عنونها بالمستملحات والفوائد والمسائل. وقد اعتمد الإكَراري على التوزيع الجغرافي والنسبي للمترجم لهم ، وعلى جانبهم السلوكي والفكري من خلال المعاينة

والمباشرة، أو من خلال ما يروى عنهم، ولقح مادته بمظان مخطوطة كتبا كـانت أو عقودا أو ما إليها.

واستخلص المحقق أنوش أن المنهج المستعمل يتحرى الخبر والسـند معـا ومع ذلك لم يخرج عن قواعد التأليف المعهودة. بيد أن الجديد الذي يحمله المتـن بسوس على الأقل، هو موقفه الصارم من المترجم لهم، استحسنه البعض واستنكره البعض الآخر لإفراطه في القدح وسرد المثالب. وبديهي أن يثير هذا النهج امتعاض وحفيظة السوسيين الذين لم يألفوه، وهو بذلك "قلب الطريقة السوسية رأسـا علـى عقب"، كما جاء على لسان المؤرخ السوسي.

وأعتقد أن فهم هذه الظاهرة تفرض وضعها في سياقها التاريخي ودراسـة "للروضة" دراسة شمولية أفقية لا قطاعية، أو دراسة إحصائية ترمـي إلـى عـدم الاعتماد على بعض التراجم فقط.

إن الذين حظوا بالطعن بصفة مطلقة قليـل، وهـم مـن العرفـاء والقيـاد بالخصوص. أما في التراجم الأخرى فنلمس ازدواجية بين المثالب والمحاسـن، أو ذكر المحاسن فقط. ففي الازدواجية يستعمل الإكَراري أسـلوب الاسـتثناء:"يجمـع العقود، ولا يحل كل معقود، إلا أنه يطعم الطعام ."...أو بعد ذكر المثالب، يسـتعمل صيغة "ومع ذلك" : "ومع ذلك ، فنعم صـاحب الترجمـة تـترى". ومـع ذلـك فـالمذكور عنه كريم". ولا يسلم من المثالب : تـارك صـلاة الصفـوف، وظـالم الأحكام، ومزور العقود... ويكفي أن يعرف صاحب الترجمة بالجود والعطـاء، أو تقريبه للعلماء وتعظيمهم، أو حفره النطفيات أو الظفريات، حتى يسـتدرك بالثنـاء عليه. وهذه الازدواجية في السلوك، وموقف الإكَراري منها مرآة للـدور المنـوط بالفقهاء الوظيفي، مما قـد يثـير بـدون شـك فضـول البحـث السوسـيولوجي والأنطروبولوجي(3). وفي نفس السياق لم يسلم من "اللسان السـليط" – وإن بشـكل أخف – العلماء الذين انشقوا عن الطريقة الناصرية، ولم يكن موقف المؤلف منـهم موقفا مطلقا. فقد وسم وحلى أول من أدخل الطريقة التجانية إلـى سـوس بـالرجل الصالح، واعترف بقوة الجذب وحجة الإقناع لدى البعض منهم، فكان علـى حـذر حين زار "التمدوزتي" خوفا من أن يلقنه الورد الدرقاوي. كما ذكر أقطاب التصـوف الأربعة تيمنا وتبركا بهم دون تمييز. وهذا دليل على أنه لم يتعصب كل التعصـب للناصرية مثل شيخه الأدوزي. وحين يستشعر أنـه تجـاوز "الخطـوط الحمـراء" يستعمل عبارات منها:"وأستغفر الله فيما زبره القلم، وكبا به زند الضرم، فنحن إنمـا نحكم بالظاهـر والله يتولى السرائر". "وأستغفر الله إن كان فيه ما يخفيـه"."ولسـنا بصدد الطعن إنما حكينا. من حكى قول الناس، فما عليه من بأس".

بالمقابل، حظي جزء غير يسير من المترجم لهم، بالثناء إلى درجة المـدح وعلى رأسهم شيوخ الإكَراري والقائدين الجراري والأخصاصي لما أسدوا له مـن معروف :"ومن يشكر المعروف، فالله زائده". بينما حظي بالثنـاء غـير الصريـح

بعض القياد أمثال : التمنارتي، الكَنتافي، المتوكّي، الإليغي وابن بيروك. وزمرة من العلماء المرتدين عن الناصرية، أمثال : الونكّضائي والتمدوزتي درقاويا الطريقة وأحمد بن محمد بن عبد الرحمن الذي لا طريقة له، والأدوزي تجاني الطريقة...

إن لهذا الموقف مبررات، يمكن على ضوئها التماس العذر للأكَـراري، وإن كان هو لا يعذر من ترجم لهم، فالفقيه لم يستسغ بعض التحولات الكبرى التي بدأ يعرفها المجتمع السوسي نتيجة كوارث وفتن يشيب لها الرضيع. ويمكن اختزال بعض مظاهرها في :

أ ـ تراجع مؤسسة الفقهاء مع تنامي مؤسسة القياد والعرفاء، فاضطر البعض من العلماء والفقهاء إلى العدول عن النهج القويم.

ب ـ معاناة السوسيين من اضطرابات سياسية واجتماعية إثر احتكاك المخزن المغربي اللامتكافئ مع الأوربيين.

ج ـ تنامي طريقتي التجانية والدرقاوية على حساب الطريقة الناصرية، فارتد التلميذ عن شيخه على غير العادة.

د ـ ضمور دور بعض العائلات الكبرى، فأمسى البحث عن "مشجرها" وصيانتها من الضياع والبحث في أصولها ضرورة ملحة، لذلك أسهب الأكَراري في الذرية ورصد خطوات الخلف، هل انفصل أم اتصل مع تراث السلف ؟ "لا تترك الجمرة إلا الرماد". "ولا يترك النفاق إلا الكساد". إن هذه المظاهر جعلت الأكَراري ينعت عصره "بالدهر المشت والزمن المهت". فالمرحلة هي بداية تفكيك للبنى الاجتماعية والثقافية للمجتمع المغربي. ويبدو من مؤرخنا أنه لم يستوعب الأسباب الحقيقية لهذه التحولات، وحمل المسؤولية كل المسؤولية للأفراد.

كل هذه القضايا غيض من فيض، يستحق دراسة مستفيضة حول شخصية الأكَراري وتفاعلاته ومواقفه ومناظراته ومزاجه وانتفاضته مع المحيط. كل هذه الحمولة الثقافية اختزلها النص بأسلوب يميس في أسجاع متناسقة، وخطاب لغوي مركب، ظاهره غير باطنه، مما يفرض ثقافة واسعة، وتحريا ميدانيا لفهم مضمراته. ومن حسن الطالع، أن المرحوم حمدي أنوش تمكن من بلوغ المقاصد. ويمكن أن نوجزها فيما يلي:

أولا :تحرى – رحمه الله – تقديم مخطوط" روضة الأفنان" تقديما صحيحا كما وضعه مؤلفه، حتى يبقى النص محترما في هيكله، ومحتفظا بقيمته الذاتية. وقد قابل بين نسخ ثلاث، نسختان بخط المؤلف. واستعمل المرحوم طريقة واضحة تسهل قراءة النص وفهمه وفق رسم معاصر، مشيرا إلى الاختلافات بين النسخ، مع إثبات الراجح في النص، والإشارة إلى المرجوح في هوامش المقابلة، ولو كان في الأساس المعتمد. ومن حسنات عملية المقابلة الكبرى، إدراجه كل الطرر التي وثقها الأكَراري في المخطوط. أو إدراجه بعض التعليقات لابنه الجهبذ السيد أرفاك إبراهيم، متعه الله بمديد العمر. وهذه الطرر مفيدة للغاية. وأشير إلى ملاحظة

عرضية أنه كان من المستحب أن تفرد هذه الطرر وتدرج ضمن هوامش المقابلـــة لأنها جزء من المتن، وهي كتبت – على الأقل – على مدى أربع سنوات بعد تـاريخ التأليف. ولابد من التذكير أن الأكراري جبل على الاهتمام بالطرر، ويعـــرف قـــدر هذه الخاصية من استعان من المحققين، بالكتب المخطوطة التي نســـخها: كطبقـات الحضيكي ، وأيسر المسالك، وشرح ابن الونان وغيرها.

ثانيا :المقصد الثاني، هو الرجوع إلى الأصول الأصلية للكتاب وإلى معظم النقـــول المصرح بها، وغير المصرح بها في المتن، محددا طبيعتـــها وصيغـــها، حرفيـــة كانت أو نقولا بالمعنى.

ثالثا:المقصد الثالث، التعريف بمصادر الأعلام الواردة في المتن، وتوطين الأمـــاكن والجماعات والطوائف، وإرجاعها إلى أصولها بضبط رسمها. وهذه العملية ليســـت باليسيرة، إذ اصطلى بنارها كل من اشتغل في مشروع "معلمة المغرب".

ولم يكتف المحقق بهذا، بل عرب عبـــارات وردت فـــي النـــص باللســـان المحلي. ولا مندوحة أن تحقيق المتن على ضوء المثاقفة، يستلزم ثقافة مزدوجة وقد استفاد المرحوم من رصيده الثقافي من اللغتين. ورب قارئ لعمل المحقق، قد يســـأل عن سبب اختزال الهوامش ؟ فالقصد من ذلك أن لا ينشغل القارئ بها عن النـــص. وفي ذلك يقول المحقق المعروف المنجد صلاح الدين :" إن الكثرة من الناشـــرين لا تنتبه إلى هذا الأمر، فتجعل الحواشي ملأى بالشروح والزيادات (...) بصـــورة قـــد تشغل القارئ عن النص نفسه".

رابعا :نيل المحقق عمله بفهارس، الغاية منها الإفادة مـــما في "الروضـــــة" مـــن مظان تكون في متناول كل باحث وقارئ، وعددها سبعة فهارس. ولا ضـــير مـــن القول إن الفهرسة جزء من عملية التحقيق، قراءتها وترتيبها وضبطها، مرآة للعمـــل المنجز في المتن.

خامسا:وفي سياق تقريب الكتاب من القارئ قدم للمتن بمدخل عرف فيـــه بـــالمؤلف والمؤلف باختصار شديد، مع سقط مقصود – من اللجنة المشرفة علـــى الطبـــع – لدراسة أنجزها المرحوم حول الكتاب، للتخفيف من أعباء عملية الطباعة. وأكيد أنـــه لو لم تخطفه منا يد المنون، لأنجز المحقق دراسة موازية حول المؤلـــف والمؤلـــف ولكن هيهات إنها مشيئة القدر المحتوم.

تلكم هي المقاصد التي سعى إليها المحقق المدقق حمدي أنوش والتي أفضت إلى عمل جاد أكاديمي رصين

الهـوامـش.

1) ـــ من منشورات كلية الآداب جامعة ابن زهر، الطبعة الأولى ، 1998.

2) ـــ من حسن الطالع أقيم يوم دراسي حول "الروضة" بمدينة تزنيت بمبادرة من المجلس البلدي وبمشاركة كلية الآداب ابن زهر، وشارك فيه متخصصون في حقول معرفية مختلفة.

3) ـــ مع الأسف لم يشارك أحد من هذين التخصصين في قراءة "الروضة" في اللقاء المذكور سالفا.